الطيور غير الجارحة ودلالتها في شعر جرير
دراسة في الدلالة اللسانية

أ.د عمر لحسن
جامعة عنابة

المقدمة :

تشكل الطيور جزءا لا يتجزأ من البيئة الحيوانية ، بل هو أهم جزء ، شغف به الشعراء منذ العصور القديمة ، حيث ألهمهم بعضها القوة والسيطرة (كالبوازي والعقبان والنسور) ، وأثار البعض الآخر فيهم الحنين والعطف (كالحمام) ، وحرك البعض الثالث فيهم هواجس التشاؤم والقلق (كالغراب والهام والصدأ) ، فعبروا عن هذه المعاني بما وجدوه في بيئتهم [1] .

و لم يقف اهتمامهم بالطير عند هذه المعاني ، بل إنهم استغلوا المظاهر التي عرفت بها هذه الطيور ، واستخدموها في شتى مجالات حياتهم .

ونظرا إلى أهمية الطير في حياة الناس ، وفي النظام البيئي المتناسق الذي وضعه الله عز وجل ، فإن القرآن الكريم لم يغفل ذكر هذا النوع من الحيوانات ، وقد أحصينا تسع عشرة آية تضمنت ذكر الطير ، غير أنه لم يذكرها بتفصيل أنواعها ، بل بالاسم العام ، فكانت أمم مثل جميع الأمم الأخرى كما قال عز وجل ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [2] ، وكانت من آيات الله، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [3]، وكانت من جنوده كما ورد في الآية الكريمة ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [4]، والآية ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ [5]، ومثلت كذلك طعاما كرم به الله تعالى بني آدم ، كما في قوله تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [6]، وقوله عز وجل ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[7].

– علم الدلالة :

عرض لتعريف الدلالة كل من علماء الأصول و اللغويين، فقد جاءت عند التهانوي في قوله: « الدلالة بفتح الدال هي على ما اصطلح عليه أهل الميزان والأصول العربية والمناظرة، أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر (....) والشيء الأول يسمى دالا، والشيء الآخر يسمى مدلولا. والمطلوب بالشيئين ما يعم اللفظ وغيره » [8]. أما الشريف الجرجاني، فذكر تعريف الأصوليين للدلالة، فقال: « دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص، وإشارة النص، واقتضاء النص» [9]، وهي عندهم « كون اللفظ بحيث إذا أرسل علم منه المعنى للعلم بوضع ذلك اللفظ لهذا المعنى»[10].

أما ابن خلدون، فذكر الدلالة في حديثه عن علم البيان، في قوله: « هذا العلم حادث في اللغة، بعد علم العربية اللغة، وهو من العلوم اللسانية، لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني»[11]. وذكر ابن جني هذا المصطلح في "الخصائص" في باب سماه "الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية"، ليدل به على المعنى [12]. أما ابن فارس، فقد تعـــرض لمصطلح "المعنى"، واعتبره مرادفا لمصطلح الدلالة، حيث قال: « وقال قوم: اشتقاق المعنى من الإظهار، يقال: عنت القربة إذا لم تحفظ الماء، بل أظهرته. وحكى ابن السكيت: لم تعن من عنت تعني، فإن كان هذا المراد بالمعنى الشيء الذي يفيد اللفظ. كما يقال: لم تعن هذه الأرض، أي لم تفد » [13].

أما المحدثون من اللسانيين، فركزوا على تعريف العلم الذي يهتم بدراسة المعنى والدلالة – علم الدلالة– حيث يعرفه بيير جيرو بقوله: « دراسة المعنى، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز، حتى يكون قادرا على حمل المعنى»[14]. أما حلمي خليل، فيرى أنه «ذلك الفرع من العلم الذي يتناول نظرية المعنى ودراسة المفردات » [15]. ويعرفه محمود السعران قائلا: «علم الدلالة أو دراسة المعنى فرع من فروع علم اللغة، وهو غاية الدراسات الصوتية والنحوية والقاموسية»[16]. وقد جاء تعريفه عند أحمد نعيم الكراعين في قوله: « هو الفرع الذي يبحث في استخراج قوانين المعنى العام، وهو المعنى المنوط به رصد معنى الإشارات اللغوية (الكلمات)، وإذا ما أوغلنا في تفحص مسائله، نجده يخصص الجزء الأكبر منها المتابعة تطورات الدلالة وتغيرها»[17].

– أنواع الدلالات:

من المباحث اللغوية الهامة التي أثارت اللسانيات الحديثة، عبر الدرس الدلالي، بناء على العلاقات التي تجمع بين الدال والمدلول، مبحث أنواع الدلالات، فإذا كان تحديد معنى الكلمة يتم بالرجوع إلى المعجمات اللغوية، فإن ذلك لا يمكن أن ينسحب على جميع الكلمات التي ترد مفردة أو في سياق، لذلك ميز اللغويون بين دلالات كثيرة، أهمها [18]:

1– الدلالة الأساسية أو التصورية: وهو المعنى الذي تحمله الوحدة المعجمية حينما ترد مفردة.

2– المعنى الإضافي أو الثانوي: وهو معنى زائد على المعنى الأساسي يدرك من خلال سياق الجملة.

3– المعنى الأسلوبي: وهو الذي يحدد قيم تعبيرية تخص الثقافة أو الاجتماع.

4– المعنى النفسي: وهو الذي يعكس الدلالات النفسية للفرد المتكلم ويظهر ذلك بوضوح في كتابات الأدباء وأشعار الشعراء التي تنعكس فيها المعاني النفسية للأدب أو الشعر بصورة واضحة اتجاه الألفاظ والمفاهيم المتباينة [19].

5– المعنى الإيحائي: وهو ذلك النوع من المعنى الذي يتصل بالكلمات ذات القدرة على الإيحاء نظرا إلى شفافيتها [20].

وترى صفية مطهري أن للدلالة الإيحائية « أهمية بالغة، وذلك في كونه يعمل على استنباط الدلالة الكامنة في المفردة اللغوية لما تؤديه هذه الأخيرة من وظائف، بحيث يستشف قدرتها على الإيحاء بناء على ما تتميز به من شفافية معينة »[21].

أما علماء الأصول، فقسما الدلالات اعتمادا على معايير أخرى، ترتكز على إدراك طبيعة العلاقة بين قطبي الفعل الدلالي (الدال والمدلول)، وهو لا يخرج عن ثلاث: اعتبار العرف، أو اعتبار الطبيعة، أو اعتبار العقل. وعلى ذلك فالدلالة إما عرفية، أو طبيعية، أو عقلية. وأخضع علماء الدلالة تصنيف الدلالات بناء على أداء السياق للمعنى، « فالكلام إما يساق ليدل على تمام معناه، وإما أن يساق ليدل على بعض معناه، وإما أن يساق ليدل على معنى آخر خارج عن معناه إلا أنه لازم له عقلا أو عرفا »[22]. وبذلك تكون الدلالات ثلاثة أصناف: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام، وتندرج هذه الدلالات ضمن دلالة عامة هي الدلالة الوضعية، وهي بدورها قسم من أقسام الدلالة اللفظية. وبناء على ذلك، فأقسام الدلالة تتفرع إلى ستة أصناف، يمكن تمثيلها فيما يلي:

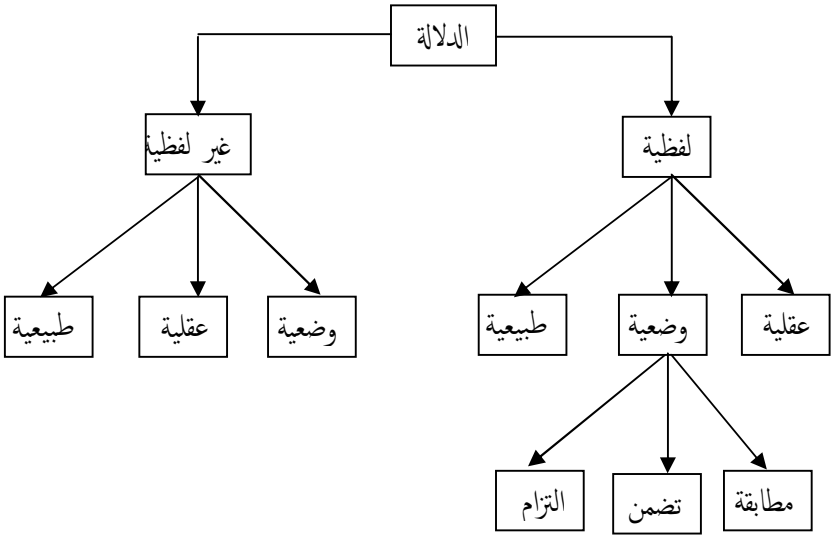

– نظرية الحقول الدلالية:

ظهرت فكرة تقسيم المادة اللغوية التي يحتويها معجم اللغة حسب ما تقتضيه التجربة الإنسانية على يد علماء الأنثروبولوجيا، فقد كانوا يريدون معرفة المجتمعات البدائية من خلال مختلف المجالات التي تكونها اللغة، ويعد حقل القرابة أهم ما استقطب اهتمامهم، وهو الذي يضم ألفاظا مثل: أب، أم، جد، جدة... ثم انتقلت هذه الفكرة إلى اللسانيات المعاصرة، والحقل الدلالي champs sémantique أو الحقل المعجمي champs lexical هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، ويعرفه جورج مونان بأنه «مجموعة من المفاهيم تنبني على علائق لسانية مشتركة، ويمكن لها أن تكون بنية من بني النظام اللساني » [23]. كحقل الألوان، وحقل القرابة العائلية، وحقل القرابة العائلية، وحقل الحيوان، وحقل الزمان... وما إلى ذلك. وهكذا، فإن الحقل الدلالي يتكون من مجموعة من المعاني أو الكلمات المتقاربة التي تتميز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة، حتى تكتسب الكلمة معناها في علاقاتها بالكلمات الأخرى داخل الحقل، لأن الكلمة لا معنى لها بمفردها، بل يتحدد معناها ببحثها مع أقل الكلمات لا إليها في إطار مجموعة واحدة [24]، وعلى هذا الأساس « فإن الكلمات لا تشكل وحدة مستقلة، بل إن بعض اللغويين يرفض أو ينكر أن يتم اكتساب اللغة في شكل كلمات مفردة، أو يكون المتكلم واعيا بالكلمات منعزلة أثناء عملية الكلام. وإذا بدا له ذلك في بداية الأمر، فإن الاكتساب يكون انطلاقا من تركيب مقدر أو مضمر أو محذوف تفهم ضمنه الكلمة التي تعلمها الفرد»[25]. وهو ما عبر عنه فندريس في قوله: « إن الذهن يميل دائما إلى جمع الكلمات وإلى اكتشاف عرى جديدة تجمع بينها فالكلمات تتثبت دائما بعائلة لغوية» [26].

وهذا يعني أن جمع الكلمات في مجموعات يعد من خصائص العقل الإنساني، الذي من طبيعته الميل إلى التصنيف والبحث عن العلاقة التي تكون أجزاء هذه المجموعة أو تلك حتى يتسنى لها فهمها ووضع قوانينها، ثم الحكم عليها والاستنتاج [27]، ويرى ليونز (Lyons) «أننا نفهم معنى الكلمة بالنظر إلى محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى وصلتها بالمفهوم العام، وعلى هذا الأساس يكون فهم معنى الكلمة، بفهم مجموعة الكلمات ذات الصلة بها دلاليا»[28]، وتعد نظرية الحقول الدلالية حديثة النشأة نسبيا، وتدخل في إطار التيار البنوي، حيث يعد الحقل بمثابة البنية الصغرى، ويرى علماء اللسانيات أن فكرة الحقول الدلالية لم تتبلور إلا في الثلاثينات من القرن العشرين، ويعود الفضل في ذلك إلى سوسير، الذي كان قد وضع اللبنة التأسيسية الأولى لهذا المبحث، حينما أومأ مسبقا إلى "وجود علائق دلالية بين المداخل المعجمية بإمكانها أن تصنف النظام اللساني إلى مجموعة من الأنساق يختلف بعضها عن بعض، وهو ما يسميه بالعلائق الترتيبية (rapports

(associatifs، وتبعه في ذلك مجموعة من العلماء، وبخاصة إسبان (Ispen) (1924)، وجولس Jolles (1934)، وبروتسينغ Porzig (1934)، وتريير Trier (1934)، وكان من أهم تطبيقاتهم المبكرة دراسة تربية للألفاظ الفكرية في اللغة الألمانية الوسيطة.

وتقوم هذه النظرية على أساس تصنيف المداخل المعجمية تصنيفا بنيويا، وفق علاقات مشتركة ومتنوعة كالترادف والاشتراك والتقاطع والمجاز والاحتواء، ومن بين أهم الحقول التي نالت عناية اللغويين حقل الألوان، غير أنه لم يدرس باعتباره ظاهرة طبيعية، بل على أساس المعاني التي تحملها في كل مجتمع، لتتنوع بعد ذلك الحقول، مثل: حقل ألفاظ القرابة، حقل النبات، حقل المطبخ...الخ، والحديث عن نشأة هذه النظرية عند الغرب لا يقلل من جهود اللغويين العرب القدامى الذين حاولوا منذ فترة مبكرة من تاريخ الدرس اللغوي عندهم تأليف المعاجم على طريقة الحقول، وهو ما يسمى عندهم بمعاجم الموضوعات أو الرسائل اللغوية، منها كتاب الخيل وخلق الإنسان لقطرب، فساق هؤلاء اللغويون الكثير من الحقول الدلالية المستنبطة من البيئة على شكل معجمات خاصة تغطي مجالات مختلفة، منها:

1- خلق الإنسان: وظهر في هذا الحقل مجموعة من الكتب ألفها كل من النضر ابن شميل، وقطرب، وأبي عبيدة، والأصمعي، وأبي حاتم السجستاني.

2- الخيل: أبو عبيدة، والأصمعي.

3- الحشرات: ألف فيها أبو عبيدة كتاب الحيات والعقارب، والأصمعي كتاب النحل..

4- النبات: النضر بن شميل.... [29]

وفوق هذا، فقد ألف كل من الثعالبي (فقه اللغة) وابن سيدة (المخصص) معجما كاملا، صنف حسب الحقول الدلالية، الذي تكون فيه الكلمات وبعض مشتقاتها يجمعها معنى مشترك، «وكان ابن فارس رائدا في هذا الميدان عندما ألف معجمه "مقاييس اللغة" على الطريقة الاشتقاقية»[30]. فكل هذا العدد الكبير من المؤلفات العلمية ينم عن إحساس علمي ثاقب، ووعي فريد في عصرهم.

– التحليل الدلالي:

تقوم هذه الدراسة على أساس توزيع الكلمات إلى مجالات دلالية [31] كبرى وفق الموضوعات التي تتوزعها، ثم تصنيف كل مجال إلى مجموعات دلالية صغرى، تدل كل مجموعة على جزء من الموضوع الذي سمي باسمه المجال الدلالي. وهذا التصنيف لم يأت من العدم، أو من وجهة نظر فلسفية نظرية، وإنما هو نابع من الدلالة المعجمية والسياقية للألفاظ التي تضمنها ديوان جرير. وقد اخترنا في هذا المقال دراسة الألفاظ الدالة على الخيل التي وردت الديوان.

ويعتمد التحليل داخل المجموعات على إبراز القضايا الدلالية المختلفة، من ترادف وتضاد، واشتراك لفظي وتعدد المعنى، كما يحاول البحث إبراز السياق اللغوي والسياق غير اللغوي (الاجتماعي)، وعموم الدلالة خصوصيتها، مع التمييز بين الدلالة المباشرة والدلالة غير المباشرة، حيث إن الشاعرة كثيرا ما تستعمل اللفظة استعمالا غير مباشر، فتنقلها إلى معنى مجازي لغرض معين.

وقد استفاد هذا البحث من جهود العلماء القدامى من أمثال ابن سيده في كتابه "المخصص" والثعالبي في كتابه "فقه اللغة وسر العربية"، بالإضافة إلى بعض الكتب والرسائل الحديثة نذكر من بينها بشكل خاص رسالة مصطفى إبراهيم علي التي تحمل عنوان " البنية اللغوية لشعر عروة بن الورد"، وهي رسالة ماجستير ناقشها بجامعة القاهرة سنة 1978 بإشراف الدكتور محمود فهمي حجازي.

استعمل الشاعر لفظة **الطير** للدلالة على عامة هذا الجنس من الحيوانات.

قال يمدح الحجاج بن يوسف الثقفي (طويل) :

أَرَى الطَّيْرَ بِالحَجَّاجِ تَجْرِي أَيَامِنًا لَكُمْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَأَسْعُدَا [32]

يمتدح في هذا البيت الحجاج، فيقول إنه كان فأل خير على الخليفة وعلى بني أمية، مستعملا اعتقادا جاهليا هو التطير . يقول إن الطير جرت أيامن وأسُعدا [33] للخليفة ، فكان ذلك إيذانا بنجاحه في تسيير شؤون الدولة وتوطيد السلم والتغلب على كل الثورات وكل المناوئين والأعداء ، والفتوحات الكثيرة ، وجلب الأموال والخيرات من هذه البلدان ، ودخول الناس في الدين الإسلامي . كل ذلك تحقق على يد الحجاج ، حين أوكل إليه الخليفة ولاية العراق . فالشاعر يضع الحجاج في مرتبة عالية جدا ، إذ لولاه لما تحقق ملك بني أمية .

– البغاث :

البُغَاثُ والأَبْغثُ من طير الماء، كلون الرماد، طويل العُنق؛ والجمع البُغْثُ والأَباغِثُ؛ قال أَبو منصور : جَعَلَ الليثُ البُغاثَ والأَبغَثَ شيئاً واحداً ، وجعلهما معاً من طير الماء، قال: والبُغاثُ، عندي، غيرُ الأَبغَثِ، فأَما الأَبغَثُ، فهو من طير الماء، معروف، وسمي أَبْغَثَ لِبُغْثَتِه، وهو بياض إِلى الخُضرة؛ وأَما البُغاثُ: فكلُّ طائر ليس من جوارح الطير؛ يقال: هو اسم للجنس من الطير الذي يصادُ. والأَبْغَثُ: قريبٌ من الأَغْبَر. ابن سيده: وبَغاثُ الطير وبُغاثُها: أُلائِمُها وشِرارُها، وما لا يصيد منها، واحدتُها بغاثة، بالفتح، الذَّكر والأُنثى في ذلك سواء[34].

قال يهجو التيم (وافر) :

أَتَرْجُو الصَّائِدَاتِ بُغَاثُ تَيْمٍ وَمَا تَحْمِي البُغَاثُ وَلاَ تَصِيدُ [35]

يشبه الشاعر مجهوه وقومه بالبغاث، وهو كما علمنا طائر صغير ليس من سباع الطير، بل هو مما يقع فريسة لسباع الطير ، ويقول إن هذه الطيور البغاث تريد أن تصبح من الصائدات ، فيتجرأن على ما يطقن من الأعمال ، وكيف لها أن تصيد غيرها من الطيور ، وهي لا تستطيع أن تحمي نفسها من هجمات السباع الطير الحقيقية . وكأن الشاعر يذكر بالمثل العربي الشائع : « إن البغاثَ بأرضنا يَسْتَنْسِرُ » [36] ، أي أنه يريد أن يكون شبيها بالنسر في قوته وضخامته.

– الغراب :

الغراب طائر أسود يعيش في الفيافي والأماكن القفرة ، له صوت خاص تتشاءم العرب إذا سمعته، فكان معظم حديث الشعراء العرب منذ القديم عنه يدخل في « باب التشاؤم ، لأنه أشأم الطيور عند الجاهليين . وليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه وأنكد ، حتى أصبحوا يذكرونه مصاحبا لكل ما يتطيرون منه ، فهو المقدم في الشؤم ، ومن أجل هذا أصبح كل جزء منه مدعاة للتطير ، فاشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب ، وتشاءموا من صياحه ، واعتبروا هذا الصياح نذير البعد ودليل الفرقة » [37] .

إن الغراب – في اعتقاد العرب – يؤذن بالفراق المحتم إذا نعب وصاح [38] ، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم [39]. وربما يرتد تشاؤم العرب بالغراب إلى المهمة التي قام بها في قصة قتل قابيل لأخيه هابيل [40]. وهذا يفسر ارتباط الغراب عند العرب بالموت.

قال يمدح هشام بن عبد الملك (كامل) :

نَرْمِي الغُرَابَ إِذَا رَأَى بِرِكَابِنَا جُلَبَ الصِّفَاحِ وَدَامِيَاتِ بِالكُلَى [41]

الجلب : ما يعلو الجرح حين يتماثل للشفاء . الصفاح : الجوانب . الكلى : الكليتان .

يقول إننا نتعرض إلى كثير من الأذى والمتاعب خلال سفرنا . تتعرض ركابنا إلى الجروح الدامية، من شدة ما تلقاه من صعوبة الأرض التي تسير عليها ، لأن أغلب مناطق الصحراء العربية من الحجارة الغليظة الشديدة الحرارة في النهار والبرودة في الليل. وهذه الجروح والدماء تجلب الطيور الجارحة التي تشم رائحة الدماء من بعيد ، ولذلك يذكر الشاعر الغراب الذي يحوم حولهم في انتظار أن تحين فرصة الانقضاض على إحدى الراحلات بعد موتها .

قال يهجو الأخطل (طويل) :

فَلَيْتَ دِيَارَ الحَيِّ لَمْ يُمْسِ أَهْلُهَا بَعِيدًا وَلَمْ يَشْحَجْ لِبَيْنٍ غُرَابُهَا [42]

يشحج : يصوّت ، وأصل التشحاج صوت البغل أو الحمار ، ويقال : شَحِيجُ الغُراب ترجيع صوته، فإذا مدَّ رأْسه، قيل : نَعَب . [43] .

يلاحظ جرير ديار الأحبة وقد أصبحت مقفرة ، سوى من أصوات الغربان التي تبعث في النفوس التشاؤم والإحساس بالموت والفراق والبين . إنه يكثر في الأماكن الموحشة ، التي لا أثر للحياة فيها . وتشحاجه الذي يسمع من بعيد يؤذن برحيل أهل تلك الديار ، وقفر ذلك المكان . فقوة تأثير شرّ الغراب في النفس جعلت الشاعر لا يرى إلا ما يوحي بالفراق أو البين عن الديار، التي شهدت حبه لمن فيها .

لقد أصبح صوت الغراب في آذان العرب رمزا للبين ، حتى إذا هذا البين لصيقا به في القول ؛ إذ اعتادوا دعوته بغـــراب البين . ويعلل الجاحظ ذلك بسقوطه « في مواضع منازلهم إذا بانوا » [44].

قال يمدح الحجاج بن يوسف (وافر) :

إِنَّ الغُرَابَ بِمَا كَرِهْتَ لَمُولَعٌ بِنَوَى الأَحِبَّةِ دَائِمُ التَّشْحَاجِ

لَيْتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنْعَبُ بِالنَّوَى كَانَ الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأَوْدَاجِ [45]

النوى : البعد ، والنَّوى: الدار. والنَّوى: التحوُّل من مكان إلى مكان آخر أَو من دار إلى دار غيرها كما تَنْتَوي الأَعرابُ في باديتها [46]. ينعب الغراب : يصوّت . الأوداج : الوَدَج والوِدَاج: عِرْقٌ في العُنُق، وهما وَدَجانِ [47] .

يحاول الشاعر أن يجعل القارئ في حالة نفسية متوترة جدا ، باعتماده على التكرار الذي أفرط فيه ، فكرر كلمة الغراب ثلاث مرات في البيتين، وكلمة النوى الدالة على البعد ، وكلمتي التشحاج ينعب إشارة إلى صوت الغراب الموحش، الذي يبعث في نفس الإنسان كل أنواع الحزن والأسى ، لنحصي بذلك سبع كلمات دالة على ما يكرهه الإنسان ، من فراق الأحبة.

لذلك ، وجدنا الشاعر يتمنى لو كان هذا الغراب مقطع عروق العنق ، فلا يستطيع أن يصدر أي صوت . وكأنه يحمّله مسؤولية ما يحس به من لوعة ، ذلك أن المواقف الشعورية الحادة التي يعيشها الشاعر دفعته إلى أن يفسر الأشياء تفسيرات خاصة تنسجم مع الجانب الثقافي والروحي الذي تبناه [48] .

– القطا :

والقَطا: طائر معروف، سمي بذلك لِثِقَل مَشْيه، واحدته قَطاة، والجمع قَطَوات وقَطَيَاتٌ، ومشيها الاقْطِيطاء. تقول: اقْطَوْطَتِ القَطاةُ تَقْطَوْطي، وأَما قَطت تَقْطُو فبعضهم يقول من مشيها، وبعضهم يقول من صوتها، وبعضهم يقول صوتها القَطْقَطةُ، والقَطْوُ: تَقارب الخَطْو من النَّشاط. وقَطَت القَطاةُ: صوّتت وحدها فقالت قَطا قَطا؛ وفي المثل: إنه لأَصْدَقُ من قَطاة؛ وذلك لأَنها تقول قَطا قَطا. وفي المثل أَيضاً: لو تُرِكَ القَطا لَنامَ؛ يضرب مثلاً لمن يَهِيجُ إِذا تُهُيِّج » [49]. وأكد

الجاحظ أن أصل التسمية من الصوت الذي يحدثه هذا الطائر، حيث يقول : « كما سمت العرب ضربا من الطير القطا، لأن القطا كذلك تصيح ، وتقطيع أصواتها قَطَا » [50] . وكأن الاسم حكاية للصوت onomatopée .

قال جرير يمدح الحجاج بن يوسف (طويل) :

وَخَافُوكَ حَتَّى القَوْمُ تَنْزُو قُلُوبُهُمْ نُزَاءَ القَطَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الحَبَائِلُ [51]

تنزو : تطمح وتثب [52] .

يصف الشاعر القوم الذين خرج الحجاج لمحاربتهم ، بعد أن تبين له أنهم ضلوا عن سواء السبيل، وأن الحرب لا مفر منها يقول إنهم ما إن سمعوا بخروجه إليهم حتى دب الخوف في أوصالهم وعمّ سائر أعضائهم ، وأصبحت قلوبهم من شدة دقاتها وتسارعها تنط وتطمح كأنها تريد أن تطير من مكانها وتخرج إلى الهواء الطلق ، لما تحس بضيق كبير . يشبهها في ذلك الموقف بسرب القطا وقد لفت حولها الحبائل، ووقعت في الشراك التي نصبها لها الصيادون ، فلما عرفت أن لا حيلة لها ، وأنها أصبحت فريسة الصيادين، أصبحت تتصايح وتنط تعبيرا عن خوفها الشديد من مصيرها .

قال جرير (بسيط) :

كَأَنَّمَا مَرَحَتْ مِنْ تَحْتِ أَرْحُلِنَا قَطَا قَوَارِبُ أَوْ رِبْدٌ مَجَافِيلُ [53]

مرحت : نشطت [54]. قوارب : قريبة من الماء . ربد : جمع ربداء : النعامة . مجافيل : نافرة.

أشرنا في مناسبات عديدة إلى لجوء جرير إلى البيئة المحيطة به يستمد منها صوره وتشبيهاته ، وهو يسير في ذلك على خطى الشعراء الجاهليين . يتحدث هنا عن سرعة راحلته الفائقة وشدة نشاطها ، ويشبهها بنوعين من الطيور ؛ بالقطا الذي كان أكثر وروده في الشعر العربي تشبيه الخيل بها ، وبخاصة في سرعة طيرانه وهو يتجه نحو الموارد المائية بعد الإعياء [55]. وبالنعام ، وهو أضخم طائر لكنه لا يستطيع الطيران – كما نعلم – غير أنه يمتاز بسرعة فائقة في الجري ، وبخاصة إذا أحس بخطر محدق ، فتراه يسابق الريح ، فيعدو بطريقة تجعله يقترب من الطيران ، ذلك أنه « إذا عدا مد جناحيه ، فكأنه بذلك يجمع بين العدو والطيران ، لا سيما إذا نفر من شيء فخافه، ومن خفته وسرعة هربه، وطيرانه على وجهه وذهابه، قالوا في المثل : شالت نعامته » [56]. فهذه السرعة الفائقة هي التي يقصدها الشعراء من تشبيه خيلهم بالنعامة.

قال يهجو الفرزدق (كامل) :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالْمَطِيُّ خَوَاضِعٌ وَكَأَنَّهُنَّ قَطَا فَلاَةٍ مَجْهَلِ [57]

خواضع : مطأطئة الرأس . الفلاة : القفر . المجهل : المجهول المعالم .

يقول لمحبوبته إنه تذكرها وهو يقطع الفلاة على المطايا الهالكة المنحنية الأعناق من شدة ما تعانيه من حرارة الجو وبُعدِ المسافة وصعوبةِ الأرض التي تدمي حوافرها ، وهي تشبه في ذلك طير القطا في الأماكن الخالية المجهولة .

– نعامة :

تحتل النعامة مكانا واسعا في الأدب العربي ، لأن الشعراء كانوا يستقصون في أوصافه ويقفون عند بعض عاداته وقوفا طويلا ، وقد وجدوا في هذا الحيوان مجالا واسعا لتشبيه مراكبهم إذا أرادوا أن يصفوها بالسرعة والنجاء [58]. ومن عجيب من يقال في شأن هذا الطير أن عظامه لا مخ فيه [59]. وقد ضربوا بها المثل في الجبن والحماقة ، فقالوا : أجبن من نعامة [60]، وأعدى من ظليم [61]. وهم في كل هذه الأمثال يؤكدون على معاني الخوف والذعر والهزيمة والموق والحمق والحذر والسرعة .

فالسرعة هي الظاهرة العامة التي عرف بها هذا الحيوان ، وما من شك أنها ذات فائدة خاصة في البيئة الصحراوية ، مما جعل هذه الصورة تنعقد في الأذهان ، فشبهت به الراحلة وسرعة سيرها في الأرض الصلبة [62].

قال جرير يهجو بني طهية (بسيط) :

إِذَا ضَرَحْنَ حَصَا مِعْزَاءَ هَاجِرَةٍ مَدَّتْ سَوَالِفَهَا فِي لِينِ أَعْضَادِ

تَأْتِي الغَرِي بِأَيْدِيهَا وَأَرْجُلِهَا كَأَنَّهُنَّ نَعَامُ القَفْرَةِ النَّادِي [63]

الغَرِيُّ: موضع بالكوفة ، وهو ماء قرب أجأ [64] . النادي : المتفرق .

يقول إن النياق تطأ بأخفافها الحصا في أرض مقفرة ، تحت وطأة الهجير ، وتمد أعناقها فيما بين أعضادها، أي أنها تحني رؤوسها. يشبهها بالنعام، فيقول إنها تعدو بأيديها وأرجلها، وهو نوع من عدو النياق، شبيهة بالنعام الذي يسكن في الأماكن القفرة.

يريد الشاعر أن يبرز من خلال هذه المقارنة صعوبة المكان ، وما يلاقيه من صعوبات خلال تنقله فيه ؛ فإذا كانت الحيوانات كالنعامة التي خلقها الله لتعيش في هذه الأماكن الصحراوية وزودها بقدرات خاصة ، تجد صعوبة في التنقل عبرها ، فلا شك أن الناقة والإنسان سوف يعانون الأمرين .

قال يمدح عبد الملك بن مروان ويهجو الأخطل (كامل) :

وَإِذَا تَقَاصَرَتِ الظِّلَالُ تَشَنَّعَتْ وَخْدَ النَّعَامِ وَفِي النَّسُوعِ فُضُولُ [65]

تشنعت: جدت في السير [66]. النسوع: جمع نسع، وهو حبل تشد به الرحال [67]. فضول: اتساع.

يصف راحلته ، فيقول إنها تجدّ في سيرها ، ويضاعف سرعتها إذا قصر الظل ومالت الشمس إلى المغيب ، بالرغم من أن العنان كان مرخيا ، إلا أن الراحلة تعرف من نفسها بأن الوقت يستدعي منها مضاعفة السرعة حتى تصل إلى ديارها قبل الليل ، وحلول الظلام الذي هو نذير كل المخاطر بالنسبة إلى كل الحيوانات .

يشبه سير الناقة في هذا البيت بسير النعامة ، في نشاطها وسرعتها الفائقة ، وقد مر معنا أن هذا النوع من التشبيه كان شائعا عند العرب منذ العصر الجاهلي ، لأن الناقة تشبه النعامة في جريها . فهذا الطائر كان مثار عجب عندهم ، حتى إنهم قالوا بأن النعامة متولدة من جمل وطائر [68] .

قال يهجو بني مجاشع (وافر) :

وَيَوْمَ الشَّيِّطِينِ حُبَارِيَاتٌ وَأَشْرَدُ بِالوَقِيطِ مِنَ النَّعَامِ [69]

يوم الشيطين : يوم كان لوائل على تميم [70]. الحباريات : نوع من الطيور ، سبق التعريف به. الوقيط : من أيام العرب كذلك [71] .

يشبه الشاعر مهجويه بالطيور الضعيفة التي لا تستطيع أن تواجه أعداءها، فتراها تفرّ شاردة عند الإحساس بالخطر أو عند رؤية العدو من الإنسان أو من الحيوانات المفترسة لها . يقول إنهم في تلك الموقعتين (يوم الشيطين ويوم الوقيط) يشبهون بغاث الطير الذي لا حول له، يرتعدون من شدة الخوف والهلع . فهم تارة مثل الحبارى أمام البازي ، الذي ينقض على فريسته بكل سرعة وقوة، وتارة مثل النعام الذي تشرّد قطيعه شذر مذر عند مشاهدة الأعداء، ليخبِّئ رأسه في الرمل على عادته [72] .

قال لهريم وهلال بن أحوز المازني (وافر) :

كَأَنَّ رَبَابَهُ الضُّلَالُ فِيهِ نَعَامٌ جَافِلٌ لاَقَى نَعَامَا [73]

الرباب : السحاب الأبيض [74]. جافل : شارد، والجُفُول : سرعة الذهاب والنُّدود في الأَرض [75] .

يصف الشاعر تغير حال الجو ، فيذكر السحب التي تطارد بعضها ، وتتلاحق في جوف السماء ، بألوان مختلفة ، بعضها أسود وبعضها أبيض . يشبهها بأسراب النعام الجافلة، التي هربت من خطر محدق، فتلتقي بأسراب أخرى ، تتزاحم في المكان الواحد ، فكأنما يصطدم بعضها ببعض ، محدثة حالة من الفوضى .

– المخرجة :

جاء في الصحاح : « الخَرَجُ، بالتحريك: لونان، سوادٌ وبياض، يقال: كبش أَخْرَجُ، وظَلِيمٌ أخرجُ بَيِّنُ الخَرَج » [76] .

والمخرجة هي النعامة التي يخالط بياضها سوادا .

قال يهجو التيم (طويل) :

يُطرّفُ عَيْنَيْهَا الزِّمَامُ، كَأَنَّهَا مُخَرَّجةٌ رَاحَتْ إِلَى أفرُخٍ زُعْرِ [77]

يطرّف : يصيب [78]. الزِمَامُ: الخيطُ الذي يُشَدُّ في البُرَةِ أو في الخِشَاشِ، ثم في طرفه المِقودُ. وقد يسمَّى المِقوَدُ زِمَامًا [79].

زعر : لا ريش لها لصغرها .

– الرأل :

الرَّأْل: ولد النَّعام، وخصَّ بعضهم به الحَوْلِيَّ منها؛ والجمع أَرْؤُلٌ ورِئْلانٌ ورِئالٌ ورِئالةٌ؛ والأُنثى رَأْلة؛ ونَعامة مُرْئِلةٌ: ذاتَ رَأْلٍ . واسترأَلت الرِّئْلانُ: كَبِرَتْ . واسْتَرْأَلَ النباتُ إِذا طال، شبّه بعُنُق الرَّأْل. ومَرَّ فلان مُرَائِلاً إِذا أَسرع [80] .

قال جرير يهجو الفرزدق (وافر) :

رَقَصَتْ بِعَاجِنَةِ الرَّحُوبِ نِسَاؤُكُمْ رَقْصَ الرِّئَالِ وَمَا لَهُنَّ ذُيُولُ [81]

عاجنة المكان : وعاجِنَةُ المكانِ : وسَطُه [82]. الرحوب : من أيام العرب ، ويسمى يوم الرحوب [83].

يقول إن الحرب التي دارت بينهم وبين أعدائهم كانت نتيجتها لفائدة الأعداء الذين تغلبوا عليهم ونالوا منهم ، وما يدل على ذلك التعبير الذي استعمله جرير يشبه به نساء مجاشع وهن يشهدن انهزام قومهن ، فقد شبّههن بأفراخ النعام ، وهن يرقصن من شدة الخوف والهلع ، لما ينتظرهن من مصير مجهول بعد انهزام الجيش الذي كان يحميهن .

إن اختيار الشاعر أفراخ النعام ليشبه بها النساء يعود إلى ما عرف به هذا الحيوان من ذعر أمام كل ما يمكن أن يشكل له خطرا ، فما بالك بالفرخ الذي ما زال في حاجة إلى أمه أو أبيه ليحميه من المخاطر .

إن النعام طائر شديد الخوف ، لا يملك أي سلاح يدافع به عن نفسه سوى سرعته الفائقة وجسمه الضخم ، مما يجعل سائر الحيوانات لا تتجرأ على مهاجمته ، وبخاصة سباع الطير . ولذلك وجدنا الشاعر يشبه النساء وهن يرتعدن من الخوف بالرأل ، لما يرمز إليه من ضعف .

استعمل جرير هذا الحيوان بدلالات متعددة ، وفي سياقات متنوعة، لكن الصفة التي قصدها في كل مرة واحدة ، إذ يركز على الخوف الشديد التي يشعر به هذا الطائر ، والسرعة الفائقة التي يعدو بها ، وحالة الجفول والتفرق التي تصيب قطيعه عند مشاهدة الخطر المحدق . فقد شبه بها الإنسان تارة ، والناقة تارة ، والسحاب تارة أخرى .

– الأصداء :

« الصَّدَى : وطائِرٌ يَصِرُّ بالليلِ، يَقْفِزُ قَفَزاناً، وطائِرٌ يَخْرُجُ من رأسِ المَقْتُولِ إذا بَلِيَ، يَزْعُمُ الجاهِلِيَّةُ » [84] . وقال الخليل : « والصَّدَى: طائرٌ تزعمُ العربُ أنّ الرجلَ إذا ماتَ خَرَجَ من أُذُنَيْهِ ويصيحُ: وافُلاناه، فأبْطَلَه رسول الله صلّى الله عليه

وعلى آله وسلّم » [85]. وكان العرب في الجاهلية يقولون إن هذا الطائر لا يزال عند ولد الميت ومخلفيه ليعلم ما يكـــون بعده فيخبره [86] .

قال يمدح عبد العزيز ويذم معاصريه من الشعراء (كامل) :

قَلْبِي حَيَاتِي بِالحِسَانِ مُكَلَّفٌ وَيُحِبُّهُنَّ صَدَايَ فِي الأَصْدَاءِ [87]

يبدو جرير كلفا بالنساء متيما بالحسان ، يقول إنه ما دام حيا فإنه يبقى على هذه الحال. وإذا مات ، فإن الصدى الذي يخرج من قبره سيكون ميتما كذلك محبّا للنساء الحسناوات .

وعلى الرغم من أن الشاعر مسلم ، يعيش في بيئة مسلمة ، أبعدت كل المعتقدات الوثنية الجاهلية، فإنه ما زال متأثرا بهذه المعتقدات التي جاء الإسلام ليدحرها . فالاعتقاد بخروج طائر من رأس القتيل الذي لم يؤخذ بثأره اعتقاد جاهلي [88]، غير أننا نظن أن الشاعر لم يذكر هذه الفكرة من باب الاعتقاد ، بل ربما من قبيل المبالغة التي يمتاز بها الشعر في كثير من المواضع .

ويبدو « أن النزعة الجاهلية أثرت في الأدب الأموي – وخاصة الشعر – أكبر أثر ، فالمعاني الجاهلية ، والهجاء الجاهلي ، والفخر الجاهلي ، والحمية الجاهلية ، كلها واضحة أجل الوضوح في الشعر الأموي » [89] .

– الحمام :

الحَمام: طائر، والعَرَبُ تقول: حَمامةٌ ذَكَر وحَمامةٌ أُنْثَى، والجميع حَمام [90] . هو عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخت والقماري وساق حر والقطا والوراشين وأشباه ذلك ، يقع على الذكر والأنثى ، لأن التاء دخلته على أنه واحد من جنس لا للتأنيث ، وعند العامة أنها الدواجن فقط الواحدة حمامة [91] .

يقترن اسم هذا الطائر في الشعر العربي عموما بحديث البكاء والنواح ، فهي تثير في بكائها ونواحها شجونهم وتهيج فيهم لوعة الفراق، « وربما كانت هذه الإثارة بسبب التعاطف الذي كان يحس به الشاعر تجاه هذا الطائر الذي كتبت عليه الرحلة فتحملها كما كتب على الإنسان العربي الارتباط بالغيث والكلأ ، فكان يتعقبه في كل موقع ، ويسعى إليه بكل مكان ، ووجدوا في هذا الحيوان النائح إثارة لواعجهم » [92] .

قال يهجو التيم (طويل) :

لَقَدْ هَتَفَ اليَوْمَ الحَمَامُ لِيُطْرِبَا وَعَنَّى طِلاَبُ الغَانِيَاتِ وَشَيَّبَا [93]

يقول إن الحمام شرع يهتف ليثير طرب ذوي الأشجان ، ثم ينتقل في عجز البيت بشكل مفاجئ إلى القول بأن من يطلب وصال العانيات وودهنّ يلقى لا محالة المشقة والعناء ، ويصاب شعره بالشيب من دون ذلك .

وقال يمدح معاوية بن هشام بن عبد الملك (كامل) :

وَعَرَفْتُ بَيْنَهُمُ فَهَاجَ صَبَابَةً صَوْتُ الحَمَامِ إِذَا الْهَدِيلُ تَغَرَّدَا [94]

بينهم : نأيهم وفراقهم .

يقول إنه فجع بسماع خبر رحيل الأحبة ومغادرتهم الديار ، فبث ذلك الخبر في نفسه كل أنواع الشجون والحزن ، لمـــا يسببه ذلك الرحيل من بعاد محبوبته قد يدوم سنين ، وربما يكون أبديا . وما زاد من هـــذا الإحســـاس قـــوة وأدى إلى مضاعفته هو سماعه لهديل الحمام .

قال جرير يهجو الفرزدق وعبيد العنبري (طويل) :

وَأَصْبَحَتِ الأَجْزَاعُ مِمَّنْ يَحُلُّهَا قِفَارًا فَمَا شَاءَ الحَمَامُ تَغَرَّدَا [95]

الأجزاع : الوديان . وجزع الوادي : المكان الذي يقطع منه [96] .

يقول إن هذه الوديان التي كانت ملأى بالحركة والحياة، يعمرها أهلها من أحبة الشاعر ، أصبحت فقارا ، خالية من كل إنس ، لأنهم رحلوا وتركوها خالية على عروشها ، تركوها للحمام ، فليغرد كما شاء فلن يزعجه أحد ولن يسمع تغريده أحد . ومعروف عند العرب أن الحمام من الطيور التي تكثر بالجبال والمناطق القفرة ، حيث تجد حرية كبيرة لبناء أعشاشها والتكاثر [97] .

قال جرير (كامل) :

بَكَرَتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ مَحْزُونَةٌ تَدْعُو الهَدِيلَ فَهَيَّجَتْ أَحْزَانِي [98]

الأيكة : نوع من الأشجار ، وقيل: هي الغَيْضة تُنْبِتُ السِّدْر والأَراك ونحوهما من ناعم الشجر، وخص بعضهم به منبت الأثل ومُجتَمعه [99]. الهديل : صوت الحمام ، وقيل ذكر الحمام ، وقيل : فرخ الحمام [100].

يقول إن سماعه صوت الحمامة الشجي المحزن الذي يبعث في كل من يسمعه الحزن والنكد، وهو ينبعث من شجرة الأيكة الملتفة هيج أحزانه، وجعل المواجع تتحرك في أعماقه، خاصة أن صوتها ارتبط عند العرب منذ العصر الجاهلي بأسطورة مفادها « أَن فرْخا كانَ على عهد نوح ، عليه السلام ، فمات ضَيْعةً وعطَشاً فيقولون إنه ليس من حمامة إلاَّ وهي تبكي عليه » [101]. فالحمامة التي تبكي على هذا الفرخ المفقود ، تذكر الشاعر بأحبته الذين رحلوا بلا رجعة ، فيحرك ذلك الأحزان والشجون في نفسه .

قال يمدح هشام بن عبد الملك (وافر) :

سَمِعْتُ حَمَامَةً طَرِبَتْ بِنَجْدٍ فَمَا هِجْتِ العَشِيَّةَ يَا حَمَامَا ! [102]

نجد : اسم موضع [103] .

يقول إني سمعت في نجد حمامة تغرد وتصدر أشجى الأصوات ، فيتساءل عن السبب الذي هيجها وجعلها تغرد . ويبدو أن جريرا لا يقصد أن يتساءل سؤال الجاهل ، بل إنه سؤال التعجب ، ليجعل الحمام يشاركه أحزانه وأشجانه ، على عادة الشعراء العرب ، نظرا إلى ما يتميز به صوت الحمام من شجو وإثارة للأحزان ، وإلى ارتباط هذا الطائر بأسطورة الموت والفجيعة .

قال يهجو الفرزدق (طويل) :

إِذَا زَارَهَا القَيْنُ العِرَاقِيُّ ذَبَّحَتْ فِرَاخَ حَمَامٍ بَاضَ خِزْيًا حَمَامُهَا [104]

يقول إن هذه المرأة البخيلة الفقيرة التي لا تعرف للضيف قدره ، ولا تقدم إليه ما هو أهل له من إكرام ، فتراها لا تزعج نفسها كثيرا ، فلا تقدم إليه إلا لحم فراخ الحمام ، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع . فالحمام الكبير لا يمكن أن يشبع الرجل من جوعه ، فما بالك بالفراخ .

وقال يهجو المرار بن منقذ البرجمي (طويل) :

وَلَوْ نَزَلُوا بالبَيْتِ مَا بَاتَ آمِنًا حَمَامٌ لَدَى البَيْتِ الحَرَامِ قَطُونُ [105]

قَطُون : مقيم بالمكان لا يبرحه [106] ، وهو وصف الحمام التي كانت ملازمة للبيت الحرام .

يهجو الشاعر المرار بن منقذ البرجمي ، ويقول إنه وقومه أناس أشرار لا يؤمن لهم جانب . إن نزلوا بالبيت الحرام، لم يأمن شرهم جميع المخلوقات ، حتى الحمام الذي عرف بأنه يعيش في أمان وطمأنينة لأنه وجد فيها مواضع يأمن إليها ويلوذ

بها، فلا يتجرأ مسلم على إيذائه أو أكله ، إلى درجة أن العرب أصبحت تضرب به المثل ، فقالت : " آمن من حمام مكة " [107]. غير أن هؤلاء القوم لا يتورعون عن كسر هذه القاعدة ، لأنهم لا يعرفون الحدود والقوانين .

فإيذاء الحيوان دليل على انعدام المروءة والرحمة ، ودليل على الجبن ، وبخاصة إذا كان ذلك الحيوان لا يهدده ولا يمكن أن يشكل خطرا ضده ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن امرأة دخلت النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض [108] . فما بالك بالذي يؤذي حيوانا إيذاء مباشرا **!!!**

– الريش – القوادم :

الرِّيشُ: كِسْوةُ الطائر، والجمع أَرياش ورِياشٌ [109]. وقَوادِمُ ريش الطائر: ضد خَوافِيها، الواحدة قادِمة وخافِية. ابن سيده: والقَوادِمُ أَربع رِيشات في مُقَدَّم الجناح، الواحدة قادِمة، وهي القُدامَى، والمناكب اللواتي بعدهن إِلى أَسفل الجناح، والخَوافي ما بعد المناكب، والأَباهر من بعد الخوافي، وقيل: قَوادِم الطير مَقادِيم ريشه، وهي عشر في كل جناح. ابن الأَنباري: قُدامَى الريش المُقَدَّم [110] .

قال يمدح عبد الملك بن مروان (وافر) :

سَأَشْكُرُ أَنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيشِي وَأَثْبَتَّ القَوَادِمَ فِي جَنَاحِي [111]

يوجه الشاعر خطابا مباشرا إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يستجديه فيه ويطلب منه العطاء الجزيل ، مستعملا أسلوبا مجازيا ، إذ يشبه نفسه بالطائر الذي نزع منه ريشه وقوادمه ، فأصبح عاجزا عن الطيران وعن كسب رزقه . والأمير هو المأمول في مثل هذه المناسبات ، لأنه مغيث الملهوف ، أليس هو الذي مدحه بقوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

– الفرخ :

قال ابن فارس في تعريف الفرخ : « فرخ الفاء والراء والخاء كلمةٌ واحدة، ويقاس عليها. فالفَرْخ: وَلَد الطَّائر. يقال: أفرَخَ الطَّائر » [112]. هذا في الأصل ، غير أنه في كل صغير من الحيوان والنبات ، والأنثى فرخة ، جمع القلة أفرخ وأفراخ والكثرة فراخ [113] .

قال يهجو البعيث (كامل) :

أَجْهَضْنَ مُعْجَلَةً لِستَّةِ أَشْهُرٍ مِثْلَ الفِرَاخِ جُلُودُهُنَّ تَمَوَّرُ [114]

معجلة: أولاد النياق تولد قبل أوانها . والمُعْجِل : التي تُنْتَج قبل أَن تَسْتَكْمِلَ الحول فَيَعِيش ولَدُها، والوَلَدُ مُعْجَلٌ [115] .

يصف جرير مطاياه ، فيقول إنها شديدة السرعة تجهد نفسها في السير والعدو ، ويؤدي بها ذلك إلى أن تضع أولادها قبل حينها ، فتبدو لشدة هزالها كأنها فراخ صغيرة ، وتبدو جلودها متموجة متلمعة .

لجأ إلى تشبيه المطايا بالفراخ ، ليضرب بها المثل في الصغر والهزال . فالفرخ رمز للضعف ، لأنها قضت زمنا داخل بيضتها لا تقتات إلا على المادة الأحية والمحية ، فتكون عند خروجها في حالة هزال وضعف شديدتين ، فلولا أن تداركها أمها ببعض الأكل لماتت في وقت سريع.

قال يهجو الفرزدق ويمدح بني جعفر بن كلاب (طويل) :

فَكَمْ فِيهِمُ مِنْ سَوْأَةٍ ذَاتِ أَفْرُخٍ تُعَدُّ وَأُخْرَى قَدْ أُتِمَّتْ شُهُورُهَا [116]

سوأة : كلُّ عَمَلٍ وأَمْرٍ شائن [117] .

يهجو الشاعر عدوه الفرزدق ، فيقول إنه يملك وأهله بيوتا يفرخ فيها الشر والأعمال المشينة ، ويضع بيضه ، في استعمال مجازي ؛ إذ يشبه الشر بالطيور التي تختار دائما أماكن آمنة وبعيدة عن أعدائها لتضع فيها أعشاشها وتبيض، حتى تعطي لأفراخها فرصة أكبر للنمو، حتى تكون قادرة على التعويل على نفسها.

فالشر وجد في ديار مجاشع مكانا آمنا، فنما وازدهر، وقضى فيها أعواما طويلة، فهؤلاء القوم مجال طيع ، لأن لديهم استعدادا للشر واللؤم.

قال يمدح عمر بن عبد العزيز (بسيط) :

مِمَّنْ يَعُدُّكَ تَكْفِي فَقْدَ وَالِدِهِ كَالفَرْخِ فِي العُشِّ لَمْ يَدْرُجْ وَلَمْ يَطِرِ [118]

هذا البيت مسبوق ببيتين يكتمل معناه بهما ، يقول جرير :

كَمْ بِالْمَوَاسِمِ مِنْ شَعْثَاءَ أَرْمَلَةٍ وَمِنْ يَتِيمٍ ضَعِيفِ الصَّوْتِ وَالنَّظَرِ

يَدْعُوكَ دِعْوَةَ مَلْهُوفٍ كَأَنَّ بِهِ خَبْلاً مِنَ الجِنِّ أَوْ خَبْلاً مِنَ النَّشَرِ!

وهو يقول إن الأرامل المرملات واليتامى الضعفاء يدعونه في الحج والمواسم ، وكأنما أصيبوا بمثل الجنون أو بمثل خوف يوم النشور .

ثم يواصل المعنى في البيت الذي اشتمل على لفظ (الفرخ) ، فيقول إن سبب دعائهم إياك وإلحاحهم في الدعوة أنهم يعدونك بمثابة الوالد الذي فقدوه ، بما امتاز به من رحمة بالضعيف ومساعدة الملهوف . فلو لم يعلموا هذه الصفات فيه لما ألحوا عليه في الدعاء .

واستعمال الشاعر لفظ الفرخ هنا إشارة إلى الضعف الذي عرف به الطائر في تلك الفترة من حياته ، واعتماده اعتمادا كليا على والديه (أمه وأبيه) . والفرخ الذي مات أبوه محكوم عليه بالموت هو كذلك . ولهذا الغرض شبه الشاعر الأرامل واليتامى بالأفرخ التي فقد والدها ، فيصبح في حاجة إلى من يعوله .

قال يهجو الفرزدق (كامل) :

يَسْقِينَ بِالأُدَمَى فِرَاخَ تَنُوفَةٍ زُغْبًا حَوَاجِبُهُنَّ حُمْرَ الحَوْصَلِ [119]

الأدمى : اسم موضع [120]. تنوفة: الصحراء [121]. زغب الحواجب: ذوو ريش قليل في الحواجب كناية عن صغر سنها .

الحوصل : جمع حوصلة ، وهي من الطيرِ: كالمَعِدةِ للإنسانِ [122] .

يصف الشاعر طيور القطا التي شبه بها المطي في البيت الذي السابق :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالمَطِيُّ خَوَاضِعُ وَكَأَنَّهُنَّ قَطَا فَلاَةٍ مُجْهَلِ [123]

تذكر حبيبته بينما كان على ظهر راحلته ، التي تشبه طائر القطا من شدة سرعتها ، ثم ينتقل في البيت التالي ، ليتحدث عن القطا ، في استطراد واضح ، شاع عند أغلب الشعراء العرب ، فيقول إن سبب سرعتها الفائقة في الطيران أنها مضطرة إلى العودة إلى أعشاشها ، لأنها تركت فيها فراخا صغيرة قليلة الريش ، ذات حوصل حمراء من شدة الجوع ، وهي تنتظر أمهاتها لتطعمها .

الخاتمة :

هكذا، نلاحظ أن الشاعر استطاع أن يحقق ما كان يصبو إليه من الاختيارات اللفظية المعجمية التي قام بها، إذ استعمل عددا من الألفاظ المعبرة عن أسماء الطير بشتى أنواعها، التي كانت تعيش في جزيرة العرب، معبرا بها عن معاني القوة

والرفعة والبطش تارة، وبعكس هذه الصفات كالضعف والجبن والخور تارة أخرى. وهذا الاختيار ينم عن معرفة جيدة بهذه الطيور وبالدلالات الاجتماعية التي عرفت بها في المجتمع العربي.

الهوامش والإحالات :

1 – ينظر نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 181 .

2 – الأنعام : 38 .

3 – النحل : 79 .

4 – النمل : 17 .

5 – الفيل : 3 .

6 – البقرة : 57 .

7 – الواقعة :21.

8 – التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، سلسلة تراثنا، 1969، ص 284.

9 – الشريف علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 72.

10 – محمود توفيق محمد سعد، دلالة الألفاظ عند الأصوليين، ط1، مطبعة الأمانة، القاهرة، 1987، ص13.

11 – ابن خلدون، المقدمة، ج4، تحقيق عبد الواحد وافي، دار النشر، القاهرة، 1962، ص 1263.

12 – ابن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، تحقيق محمد علي النجار، 1957، ص 100.

13 – ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي، المكتبة العربية بيروت، 1964، ص 192.

14 – بيير جيرو، علم الدلالة، ترجمة منذر عياشي، ط1، دار طلاس، دمشق، 1988، ص 16.

15 – حلمي خليل، مقدمة لدراسة علم اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 154.

16 – محمود السعران، علم اللغة (مقدمة إلى القارئ العربي)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992، ص 261.

17 – أحمد نعيم الكراعين، علم الدلالة بين النظر والتطبيق، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص 82.

18 – انظر عبد الجليل منقور، علم الدلالة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص64.

19 – نوال عطية، علم النفس، ط1، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص 77، نقلا عن صفية مطهري، الدلالة الإيحائية، ص 13، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

20 – أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1988، ص 36–39.

21 – صفية مطهري، المرجع نفسه، ص 13.

22 – عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني،ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة،دار القلم،دمشق ط 3، 1988،ص 27.

23 - Georges Mounin, dictionnaire de linguistique, p 65.

24 – انظر كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1985، ص 294.

25 – أحمد عزوز، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، ص 12.

26 – فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد قصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950، ص 333.

27 – أحمد عزوز، مرجع سابق، ص 12.

28 – أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص 80.

29 – انظر أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 162.

30 – عقيلة عليوة، معجم ودراسة دلالية لمدونة مختارة من ديوان ذي الرمة، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة (الجزائر)، 1990، مخطوط، ص 37.

31 – يمكن استعمال مصطلح الحقول الدلالية، وكلاهما ترجمة للمصطلح الإنجليزي semantic fields أو المصطلح الفرنسي champs sémantiques.

32 – الديوان ، ص 143 .

33 – وقيل للشُؤْم طائرٌ وطَيرٌ وطِيرَة لأَن العرب كان من شأْنها عِيافةُ الطَّيْرِ وزَجْرها، والتَّطَيُّرُ بِبَارِحها ونَعِيقِ غُرابِها وأَخْذِها ذَاتَ اليَسار إِذا أَثارُوها، قسمّوا الشُّؤْمَ طَيْراً وطائراً وطِيرَةً لتَشَاؤُمهم بها، ثم أَعلم الله جل ثناؤه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أَن طَيَرَتَهم بها باطِلةٌ، وقال: لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ ولا هامة . ينظر ابن منظور ، لسان العرب، مادة (طير) .

أما السَّعْد فاليُمْن وهو نقيض النَّحْس؛ السُّعُد السُّعود الأَخيرة أَشهر وأَقيس كلاهما سعود النجوم ، وهي الكواكب التي يقال لها لكل واحد منها سَعْدُ كذا وهي عشرة أَنجم كل واحد منها سعد أَربعة منها منازلُ يترل بها القمر. ينظر اللسان ، مادة (سعد) . وقد كانوا يؤمنون بتأثير هذه النجوم في أقدار الناس ، فمنها الذي يجلب السعد ومنها ما يجلب النحس .

34 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (بغث) .

35 – الديوان ، ص 125 .

36 – الجوهري ، الصحاح ، باب الراء فصل النون .

37 – نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 196 .

38 – ينظر الأصمعي ، الأصمعيات ، تحقيق عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة 1955 ، ص 193 .

39 – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج 3 ص 438 .

40 – عبد القادر الرباعي ، الطير في الشعر الجاهلي ، ص 117 . وقد ذكر الله عز وجل ذلك في قوله ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: 31].

41 – الديوان ، ص 19 .

42 – الديوان ، ص 48 .

43 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (شحج) .

44 – الجاحظ ، الحيوان ، ج 3 ص 43 .

45 – الديوان ، ص 69 .

46 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (نوي) .

47 – الجوهري ، الصحاح ، باب الجيم فصل الواو .

48 – ينظر عبد القادر الرباعي ، الطير في الشعر الجاهلي ، ص 116 .

49 – ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (قطا) .

50 – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج 3 ص 516 .

51 – الديوان ، ص 333 .

52 – الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، باب الواو فصل النون .

53 – الديوان ، ص 315 .

54 – الجوهري ، الصحاح ، باب الحاء فصل الميم . ومنه وفرسٌ مِمْرَاحٌ ومَرُوحٌ، أي نشيطٌ، وقد أَمْرَحَهُ الكلأُ.

55 – ينظر نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 204 .

56 – المرجع نفسه ، ص 152 .

57 – الديوان ، ص 335 .

58 – نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 151 – 152 .

59 – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج 4 ص 326 .

60 – الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) ، الأمثال ، المطبعة المحمدية ، القاهرة ، 1955 ، ص 195 .

61 – المرجع نفسه ، ص 280 .

62 – نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 154 .

63 – الديوان ، ص 107 .

64 – البكري ، معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع ، باب الغين والراء .

65 – الديوان ، ص 355 .

66 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (شنع) .

67 – ينظر الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، باب العين فصل النون .

68 – الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج 4 ص 278 . ربما دفعهم إلى هذا القول أن النعامة لا تشرب الماء أبدا، مثلها مثل الناقة التي تستطيع أن تصبر على الماء في الصحراء لمدة أيام عديدة.

69 – الديوان ، ص 377 .

70 – الشيطان : من شَيّطْتُ رأسَ الغنم وشوّطْته إذا أحرقت صوفه لتنظفه، وهو تثنية شيِّط، وهما قاعان فيهما حوَايا للماء؛ قال نصر: الشّيّطان واديان في ديار بني تميم لبني دارم أحدهما طُوَيلع أو قريب منه؛ ويوم الشّيّطين: من أيام العرب مشهور . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، باب الشين والياء وما يليهما .

71 – الوقيط: المكان الصلب الذي يستنقع فيه الماء فلا يزال فيه الماء، وقال أبو أحمد العسكري: يوم الوقيط، الواو مفتوحة، والقاف مكسورة، والياء ساكنة، والطاء مهملة، وهو اليوم الذي قُتل فيه الحكم بن خيثمة بن الحارث بن نهيك النهشلي، قتله أَراز أحد بني تيم الله بن ثعلبة؛ وأُسر في هذا اليوم أيضاً من فرسان بني تميم عَتجل بن المأموم والمأموم بن شيبان أسرهما بشر بن مسعود وطيْسلة بن شُرْبُب . المرجع نفسه ، باب الواو والقاف وما يليهما . وينظر ابن عبد ربه ، كتاب العقد الفريد ، ج 5 ص 182 – 185 .

72 – ومعروف أن النعام إذا داهمه خطر أو إذا أدركها القناص أدخلت رأسها في كثيب رمل تقدر أنها قد استخفت منه. ينظر الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج 4 ص 279 .

73 – الديوان ، ص 406 .

74 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (ربب) .

75 – ينظر المرجع نفسه ، مادة (جفل) .

76 – الجوهري ، الصحاح ، باب الجيم فصل الخاء .

77 – الديوان ، ص 158 .

78 – جاء في التهذيب : « قال زياد في خطبته: إن الدنيا قد طَرَفتْ أعينكم، أي: أصابتها فطَمَحت بأبصاركم إلى زُخرفها وزينتها » . الأزهري ، تهذيب اللغة ، باب الطاء والراء .

79 – الجوهري ، الصحاح ، باب الميم فصل الزاي .

80 – ينظر ابن منظور ، لسان لعرب ، مادة (رأل) .

81 – الديوان ، ص 357 .

82 – ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (عجن) .

83 – يوم الرحوب ويوم البشر ويوم مُخاشن واحد كان للجحاف على بني تغلب . ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، باب الراء والحاء وما يليهما .

84 – الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، باب الواو والياء فصل الصاد .

85 – معجم العين ، باب الصاد والدال و(وايء) معهما .

86 – النويري (شهاب الدين) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1916 ، ج 1 ص 286.

87 – الديوان ، ص 13 .

88 – أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1972، ص 494 . وهذه الخرافة مبعثها ولوع العرب بالثأر ، وأي تحريض على الثأر أقوى من زعمهم أن القتيل الذي يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمى الهامة ، فلا يزال يقول : اسقوني اسقوني ، حتى يقتل قاتله فيسكن ؟

ويقول المسعودي إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبدا مستوحش ، ويسكن في الديار المعطلة ومصارع القتلى ، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به .

89 – أحمد أمين ، فجر الإسلام ، بحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط 10 ، 1969 ، ص 83.

90– المرجع نفسه ، باب الحاء مع الميم .

91 – الدميري ، حياة الحيوان البرى ، ج 2 ص 137 .

92 – نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 200 .

93 – الديوان ، ص 20 .

94 – الديوان ، ص 137 .

95 – الديوان ، ص 140 .

96 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (جزع) .

97 – نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 203 .

98 – الديوان ، ص 432 .

99 – ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (أيك) .

100 – المرجع نفسه ، مادة (هدل) .

101 – ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (هدل) .

102 – الديوان ، ص 379 .

103 – النجد قِفَافُ الأرض وصِلابها وما غلظ منها وأشرف، والجماعة النجاد. وقال الأصمعي: سمعت الأعراب تقول: إذا خلّفت عَجْلَزاً مصعداً فقد أنجدْتَ، وعجلز فوق القريتين، قال: وما ارتفع عن بطن الرمّة، والرمة واد معلوم ذكر في موضعه، فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق، قال: وسمعت الباهلي يقول: كل ما وراء الخندق الذي خندقه كسرى، وقد ذكر في موضعه، فهو نجد إلى

أن تميل إلى الحرّة فإذا ملتَ إليها فأنت بالحجاز، وقيل: نجد إذا جاوَزْتَ عُذَيباً إلى أن تجاوز فَيْد وما يليها، وقيل: نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام . ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، باب النون والجيم وما يليهما .

104 – الديوان ، ص 392 .

105 – الديوان ، ص 447 .

106 – ينظر الأزهري ، تهذيب اللغة ، أبواب القاف والطاء .

107 – نوري القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 203 .

108 – ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (ريش) .

109 – المرجع نفسه ، مادة (قدم) .

110 – الديوان ، ص 74 .

111 – مقاييس اللغة ، باب الفاء والراء وما يثلثهما .

112 – الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج 4 ص 21 .

113 – الديوان ، ص 150 .

114 – ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (عجل) .

115 – الديوان ، ص 200 .

116 – ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (سوأ) .

117 – الديوان ، ص 204 .

118 – الديوان ، ص 335 .

119 – قال البكري : « أُدَمَى بضمّ أوّله وفتح ثانيه، بعده، ميم مفتوحة أيضاً ثم ياء، على وزن فُعَلَى، وهو موضع من بلاد بني سعد. وقال أحمد بن عُبَيْد: الأدَمَى: حجارةٌ حُمْرٌ في أرض بني قَشيْر. وأنشد:

يُسْقينَ بالأدَمَى فِرَاخَ تنُوفَةٍ زُعْراً قوادمُهُنَّ حُمْرَ الحَوْصَلِ » .

معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع ، باب الهمزة والدال . ونلاحظ أنه روى بيت جرير برواية تختلف شيئا ما عن الرواية التي اعتمدناها ، إذ جاء فيه كلمة قوادمهن بدلا من حواجبهن .

120 – التَّنُوفَةُ : القَفْرُ من الأرض وأَصل بنائها التَّنَفُ، وهي المَفازةُ، والجمع تَنائِفُ؛ وقيل: التَّنُوفَةُ من الأرض المُتباعِدةُ ما بين الأطْرافِ، وقيل: التنوفة التي لا ماء بها من الفَلواتِ ولا أَنيسَ وإن كانت مُعْشِبةً.

121 – الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، باب اللام فصل الحاء .

122 – الديوان ، ص 335.